أدبنا .. مترجماً إلى الإسبانية ..

يزهو بعض أدبائنا بأن إبداعه ترجم إلى لغات متعددة غالبًا ماتكون الأوروبية ، ولهم بعض حق فى هذا الزهو ، فليس أحب إلى الإنسان - مبدعًا - أن يرى ثمار قلمه تنطق بألسنة متباينة ، والفتنة بالولد وبالفن قديمة «هو بابنه وبشعره مفتون» على رأى الشاعر القديم .

وبيننا وبين الإسبان أصرة قديمة ، وإن كانت معرفتهم بنا حديثًا ، قد تأخرت عن نظائرهم من أبناء الأمم الأخرى . لكن هذه الأصرة - بعد زوال غاشية التعصب - ترجمت عن ذاتها فيما يتصل بالأندلس الإسلامية لغة وفكرًا وحضارة، باعتبار ذلك التراث جزءًا من تاريخهم هم ، وإن كان ذووه يتحدثون العربية ويدينون بالإسلام ، إلا أنهم إسبان فى النهاية كما يرون .

لكن الأدب العربى الحديث له موقف خاص ، فمدرسة الاستشراق الإسبانية تهتم فى المقام الأول بالأندلس ، واهتمامها بالأدب العربى الحديث يجئ على الهامش ، ومن أعلامها أسين بلاثيوس ، وبالنثيا ، وريبيرا ، وغرثيه غومث ، وجرانخا وآخرون ، وغومث خاصة - قد اهتم «بأيام» طه حسين ، ربما مجاملة لأستاذه ، وأذكر أننى - فى بداية البعثة - بحثت فى كبريات المكتبات عن ترجمته للأيام ، فلم أظفر بمن يعرفها !!

ثمة مدرسة تولى الأدب العربى الحديث اهتمامًا ملحوظًا ، وربما كان «بدور مارتينث» أطول أصحابها قامةً ، وللرجل مشاركات فى المؤتمرات الأدبية والفكرية فى بلاد العرب ، وله تلاميذ يحذون حذوه ، لكن البارزين منهم محدودون جدًا، واهتماماتهم - فى المقام الأول - وفى الغالب - تنصرف إلى النِّحلة المذهبية ، فكرية وفنية - أو إلى المجاملات ، وإسهاماتهم تتجه إلى التاريخ والتعريف ، ولا تتجه - غالبًا - إلى النقد والتذوق والتحليل؛ لأن الوقوف على الجمال الأدبى ربما لايتيسر إلا لأبناء اللغة الأم ؛ خاصة لغة كالعربية ، وجهودهم مشكورة فيما

يتصل بالجانب الأول ، وبعضهم - كأغلب الإسبان - فيهم كسل لذيذ وحب للحياة ، ورثوه عن الأندلسيين ، يعتمدون فى ترجماتهم على لغة وسيطة Segun-damano ، ويقعون فى الأخطاء التى يقع فيها المترجم الأصلى ، ووقع فى هذا كبارهم ، وبعض قصص نجيب محفوظ ترجمها الإسبانى عن الفرنسى ، حتى بعض كتب التراث القديم العربى .

وينبغى أن تكون حقيقة هذه الترجمات مفهومة ، فغالبًا مايحدث فى الإسبانية يحدث فى غيرها ، ودعك من فوز نجيب محفوظ بنوبل ، وإشاعة إسمه فى وسائل الإعلام ، فالقارئ العادى سوف تغيم فكرته بعد قليل ، لأن أدبنا محصور فى نطاق الاستشراق ، وهو ضيق جدّا ، والصبية الصغار من المستشرقين ، وطلاب قسم اللغة العربية يجربون معرفتهم باللغة التى لاتتجاوز دراستها أربع سنوات ، ترقع أحيانًا بدورات صيفية ، لكن البيئة كلها أعجمية ، ومن ثم تجئ ترجماتهم «تجارب» و «تمارين» تتكئ على المعجمات ، وتتجه إلى الشعر الحر غالبًا، ورائده التسهيل ، أو القصص القصيرة ، أو المقالات الخفيفة كمقالات جبران وأمين الريحانى وإخوان هذا الطراز ، وتطبع من هذه الترجمات أعداد محددة جدًا توزع هدايا ، ويقرؤها الصبية أنفسهم ، ويباع مابقى - إذا بيع - مرقمًا ، ولايتجاوز العدد خمسمائة نسخة ، لاتتعدى نطاق الأقبية الرطبة : أقبية الاستشراق !!

أما القارئ العادى وراغب الثقافة ، فلايكاد يقرأ شيئًا ، بخلاف الحادث عندنا، فالقارئ يعرف - مطالعًا - بلزاك ، وتشيخوف ، وراسين ، وخوان رامون ، وغيرهم من كتاب الغرب والشرق .

ولذلك نضحك فى أكمامنا ، حين نجد نفرًا بيننا ينتفخ بأن كتبه ترجمت إلى لغة كذا وكذا ، وهى فتنة بالقلم والولد ، لاتتجاوز حدود الطموح والأمل ، وكلاهما خيال ، وينبغى أن توضع فى مدارها الصحيح .

«أيام» طه حسين بالإسبانية

عبثًا أن يعثر راغب فى شراء كتاب «الأيام» لطه حسين مترجمًا إلى الإسبانية ، وربما غيره من الكتاب العرب ، لا لضآلة أقدارهم ، ولكن لأن أدبنا - عمومًا - ليس معروفًا إلا لدى فئة قليلة ، صوتها خافت هم فئة المستشرقين ، ورغم أن رجلاً كطه حسين يحظى لديهم بقبول ربما لايجده غيره سوى نجيب محفوظ أخيرًا، فإن صوته لايصل إلى أسماع القارئ العادى ، الذى يناظر القارئ العربى هنا ، ويعرف بلزاك وديكنز ، وتشيخوف وملتون وثيرفانتس وبقية هذا الفريق ؛ لأن مترجمى هؤلاء إلى العربية ليسوا كالمستشرقين وأقبيتهم الرطبة التى لايتسلل إليها الضوء إلا لواذا ، وطه حسين بالنسبة لغيره محدود لديهم ، لعدم مصادمته أذواقهم ، ولصدوره أحيانًا عن بعض هذا الذوق .

ربما يكون طه حسين معروفًا أكثر لدى الاستشراق الفرنسى ، وربما يكون هو الذى «صدره» إلى بقية الاستشراق فى البلاد الأخرى ، ومنها إسبانيا التى كان مستشرقوها حتى عهد قريب لايباشرون الأدب العربى الحديث إلا لمامًا .

يطفو إلى الذهن مباشرة غرثية غومث عميد المستشرقين الإسبان ، الذى تتملذ لطه حسين فى القاهرة إبان بعثته إليها ، وحاول التلميذ أن يرد بعض الجميل لأستاذه فترجم «الأيام» بجزئيه سنة ١٩٥٤ إلى الإسبانية ، ونشره فى مطبعة إقليمية فى بلنسية ، وصدره بمقدمة جيدة ، أبان فيها بواعثه التى حصرها فى «صداقته للمؤلف ، تلمذة له فى البداية ، وصديقًا له فيما بعد ، منذ أكثر من ربع قرن ، ولحبه للكتاب الذى يثير فيه ذكريات جميلة ، ولأهمية الكتاب للقارئ الإسبانى» ، كما أوضح قيمة «الأيام» بالنسبة لصاحبه وثيقة نفسية واجتماعية ، وبالنسبة لمصر التى تشهد نهضة حديثة ، مبديًا إعجابه بصوت طه حسين الطفل الكفيف الفلاح ، والحساس الذى صور الأزهر ، والقرية المصرية والمتمرد على التقاليد والأداب المرعية ، الذى صار وزيرًا ورائدًا مجددًا ، ومترجمًا عن الفرنسية، وأثنى على لغة طه حسين الحارة والسهلة الحاملة لعبق التراث القديم والتى تذكرك بأصداء الكلاسيكية ، تقودها نفس متوثبة شديدة المضاء ، ولكنها

لغة رجل «يملى» لايكتب ، ولذلك جاءت رسمًا بمنقاش النحات ، لغة ملموسة، مسموعة، مشمومة ، ونحن مكفوفون ، مثل المؤلف - كما يقول المترجم - عبر الأيام ، وكأن غومث يلمح إلى مقولة المازنى عن طه حسين فى «قبض الريح» وطبيعة الإملاء عنده ، وإن كان لم يشر ونظن أنه قرأها ، ويشير غومث بذلك إلى «المحلية المغرقة» فى الأيام ولعله يريد أن ينقد «الأيام» فى ذكاء شديد ، لأنه يقول : عبثًا أن نعرف «كُتاب سيدنا وساقية الإبراهيمية ، وخبز الأزهر ، وحارة الوطاويط» إلى آخر هذه الأشياء .

فى سنة ١٩٧٣ نشر المعهد المصرى بمدريد ترجمة الجزء الثالث من الأيام ، وقامت بالترجمة كارمن رويث ، وهى مجتهدة إلا أن أخطاءها صعبة ، ويدرك المرء أى فرق بين الجيلين : الأساتذة والتلاميذ ، كتبت مقدمة موجزة مشيرة إلى ترجمة ماريا نللينو لبعض الجزء الثالث إلى الإيطالية سنة ١٩٦٢ ، وترى كارمن فى الكتاب وثيقة مهمة للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، ووثيقة أيضًا لمشاعر المؤلف ، وأبناء جيله ، والإسبان عمومًا فيهم كسل لذيذ وحب للحياة مثل أسلافهم الأندلسيين ، يترجمون عن ترجمات وسيطة لا لعدم المعرفة بالعربية ، بل للكسل ، ولذلك يقعون فى الأخطاء التى يقع فيها المترجم الأول ، ومع أن بدرو مارتينث - وهو أستاذ جليل - راجع الترجمة ، إلا أنه يبدو أنه نظر فيها متعجلاً ، وإلا لسلم الكتاب من أخطاء ترجمة الشعر لطه حسين ولغيره ؛ إذ جاء قوله : يقول فى تسبيحه ابن الأمة ما الأمة ، بابن الأمة ، بتشديد الميم وضم الهمزة ، مع أنها تعنى القينة ، و «الهادى» وهمت أنها نطق عامى «لهذا» والمعنى بها الرسول ، وجاء قول أبى نواس ، وما أنا بالمشغوف ضربة لازب . . » «ضربة تهوى على العاشق» إلى آخر هذه الأشياء التى لانود استقصاءها هنا . ولم يكن حظ هذا الجزء بأسعد من صاحبيه ، فهو حبيس الأقبية الرطبة ، ويقرأه تلاميذ قسم اللغة العربية هناك ، وهم فئة قليلة ، والاستشراق لاتأثير له عمومًا فى الدوائر الثقافية العامة ، وأدباؤنا الذين تنتفخ أوداجهم لأنهم ترجموا إلى لغات الأرض ، عليهم أن يتطامنوا كثيرًا ، فلا يعرفهم إلا الذى يجربون معرفتهم بالعربية ، ويحيون فترة التلمذة المحدودة ، وخير لطه حسين وأدبائنا عمومًا أن يعرفهم قارئ العربية من أبنائها .

الحكيم فى الفكر الإسبانى

حظى توفيق الحكيم بتقدير الاستشراق الإسبانى ، وإن لم يحظ بالشهرة التى يستأهلها لدى القارئ العادى مثله فى ذلك مثل أدبائنا العرب ، باستثناء نجيب محفوظ أخيرًا بعد نوبل ، لأن الاستشراق الإسبانى - مثل أى استشراق آخر - يتحرك فى دائرة محصورة ، لاتكاد تتجاوز أهله والمهتمين به إلا فى حالات نادرة، ولايعنى هذا ضآلة قيمة أدبائنا .

وتوفيق الحكيم قيمة باذخة فى أدبنا الحديث ورائد فن اقترن باسمه ، وأبدع فيه كمًا وكيفًا ولايمكن أن يغفل الإسبان رجلاً له مثل إسهام الحكيم ، ولو أتيح له أن يُقرأ على نطاق واسع أو يمثل بعض إبداعه فى المسارح الأوروبية أسوة بما نصنعه نحن مع الأدب الأوروبى ، لكان له ولأدبنا شأن آخر .

والمستشرقون الإسبان حتى عهد قريب كانوا يحصرون اهتماماتهم بترجمة الأدب الأندلسى ، فهم ورثة هذا التراث ولهم فيه نصيب مثلنا .

وقد أدرك بدرو مارتينث آسفًا أن الحكيم لايعرفه القارئ الإسبانى معرفة كافية ، وكأنه يشير إلى استحقاق الكاتب المصرى إلى دراسات معمقة أو رسائل جامعية ، وينبغى أن ندرك أن ولوج المستشرقين إلى الأدب المصرى - مع عرفانهم أهميته - عسير ، فبعضهم يفرد مؤلفات للأدب العربى فى أقاليم أخرى ؛ لأن فى وسعهم الإحاطة بهذا الأدب بخلاف الأدب فى مصر ، الذى يقتضى عكوفًا وتمويلاً ، ربما لايتحان بالقدر الكافى .

احتشد بدرو مارتينث ، وكان مديرًا للمركز الإسبانى الثقافى بمصر سنوات ، ورأس جامعة مدريد المستقلة بضع سنوات كذلك ، وله معرفة عميقة بالأدب فى مصر احتشد ومعه طائفة من تلاميذه لمشروعات كبيرة ترجمت من طه حسين ونجيب محفوظ والحكيم ويحيى حقى ولطائفة من الشعراء ، وأصبح علمًا لاتجاه فى الاستشراق الإسبانى يقصر جهوده على الأدب والفكر العربى الحديث .

obeikandl.com

ترجم «شهر زاد» للحكيم ونشرها فى المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، وقدم لها بدراسة عرفت بالمؤلف وباتجاهه الفنى وارتآها «قصيدة درامية» ولايعنى أنها شعر ، بل يرى فيها روعة فى الأداء اللغوى تقارب الشعر ، وهو على حق كبير ؛ لأن حوارات الحكيم من أرقى ما قرأنا من حوارات فى الأدب العربى والأوروبى ، ولغته فيها توتر الشعر ووهجه الخلاق وكثافته الشفافة .

وثمة مقال نشر منذ بضع سنوات «لخوليو سامسو» ، وهو أستاذ بجامعة برشلونة ، ومن مدرسة تهتم بالعلوم فى الأندلس تاريخًا وحضارة ولها إسهامات واضحة خاصة لدى صاحبنا ولدى أستاذه بيرنيت مترجم القرآن الكريم ، وعنوان هذا المقال «تأثيرات إسبانية محتملة من أونامونو وخاثنتو جراو ، فى بيجماليون لتوفيق الحكيم » .

ومسألة التأثير الإسبانى فى الحكيم جديدة ، حيث يقف الباحث المقارن ، لدى التأثير الفرنسى أو الإنجليزى ولايكاد يمد بصره خارج هذين الأدبين ، وينبغى أن يكون واضحًا منذ البداية أن التأثير لايعنى النقل أو السرقة ؛ لأننا نولد وفينا كفاءاتنا الخاصة القابلة للبناء عليها .

عرض سامسو إلى آراء الباحثين من العرب فى تأثر الحكيم ببرنارد شو ، واعتمد رأى المستشرق الأرجنتينى «أوسبالدو ماتشادو» فى نفى الصلة بين الحكيم وشو ، وأن الصلة جاءت فقط من صدور الكاتبين عن الأسطورة القديمة ، وأنها غير غريبة عن الأدب العربى .

يرى سامسو أن «الحلم» المبدع للفن لدى الحكيم فى مسرحيته هذه ، أو فى أعمال أخرى سابقة له مثل «بين الحلم والحقيقة» فى عهد الشيطان ، أو فى «عصفور من الشرق» إنما هو موضوع مطروق فى الأدب الأوروبى . . وقد عاش الحكيم فى باريس من ١٩٢٥-١٩٢٧ ، وحدث خلال ذلك أن نشرت عام ١٩٢٥ ترجمة ست شخصيات تبحث عن مؤلف للويجى بيراندللو ، وفى سنة ١٩٢٦ نشرت ترجمة «الضباب» لميجيل دى أونامونو ، وعرضت قبل قدوم الحكيم باريس فى ١٤ فبراير ١٩٢٣ مسرحية «سيد بيجاليون» لخاثينتو جراو ، وهذه الأعمال تعالج الموضوع ذاته «مسألة الحلم والخلق الفنى» ويحتمل أن يكون الحكيم هذا قد

عرفها جميعًا ! وقرأ عنها .

ومسألة خلود العمل الفنى أكثر من الفنان المبدع مسألة تعرض لها هؤلاء الكتاب جميعًا على اختلاف فى التناول وطريقة العرض ، وكذلك مسألة استقلال الشخصيات الفنية عن أصحابها .

أما مسألة زيارات الشخصيات للمؤلف ، فقد تناولها أونامونو والحكيم وبيراندللو ، وأن عمل الحكيم - فى رأى سامسو - يحتوى على مجموعة موضوعات مشتركة من هؤلاء الكتاب ، وقد كانت كلها مترجمة إلى الفرنسية ، وهنا يبعد الحكيم عن شو بعدًا كبيرًا ، إضافة إلى أن الكاتب المصرى قد عالج هذه الزيارات فى أعمال أخرى مثل «القصر المسحور» ، ومع الأميرة الجدباء ، وشهرزاد مع شهريار العصر فى مجموعة «سلطان الظلام» .

وينهى الكاتب رأيه بقوله : نجد الحكيم يمزج موضوعات كلاسيكية أو مأخوذة من أعماله نفسها بموضوعات أدبية أوروبية ، ويقدم أحيانًا إشارات للحاضر السياسى ، لإخراج عمل أصيل فى أسلوب شخصى، إن الأدب الأوروبى فى نتاج الحكيم ومعظم الكتاب العرب المعاصرين يتميز بطابع الإثراء فقط ، وهو يختلف فى ذلك عن النقل ، الذى يمكن أن نكتشفه بسهولة فى الفترة السابقة فى التأثير الغربى ، ولنذكر فى ذلك مثلاً مارون نقاش» .

ولعل هذه العبارة تؤيد مانقوله من أن الأدب الإنسانى ملك للناس جميعًا ، وأن الكاتب الأصيل فى أية أمة هو من يفيد منه ، ويخرج لنا أدبًا أصيلاً ينسب إليه وحده ، وأن الحكيم بهذا المقياس المقارنى يحظى بأوفر الأنصبة من الأصالة والتفرد ، وأن قيمته أولاً أن يظل مقروءًا فى لغته الأم قبل أى لغة أخرى .

توفيق الحكيم بالإسبانية

حسنًا أن يترجم توفيق الحكيم مترجم مصرى أو مترجمة مصرية إلى اللغة الإسبانية ، حيث يعى المصرى - عادة - أسرار العربية كما لايعرفها الغرباء عنها ، الذى أخذوها اكتسابًا ، ولذا كانت حفاوتنا بهذا العمل الجيد الذى اضطلعت به الدكتورة نجوى محرز ، رئيسة قسم اللغة الإسبانية وآدابها بجامعة عين شمس ، مسهمة بذلك فى الدور الذى سبقنا به المستشرقون الإسبان فى ترجمة آدبنا إلى لغتهم ، وإن كان الاهتمام بالأدب العربى الحديث جاء متأخرًا عن اهتمامهم بالأدب الأندلسى ، الذى هم شركاء لنا فيه ، وإن كانوا يحاولون الآن تعويض مافاتهم بترجمة الأدب العربى الحديث . أول ترجمة للحكيم إلى الإسبانية . فيما نعلم - قام بها إميليو غرثيه غومث ؛ حيث قدم «يوميات نائب فى الأرياف» ولم تصب ذيوعًا رغم أهميتها فى ذاتها ، وأهمية المترجم لدى أبناء جلدته ، ثم اهتم بالحكيم تلميذ غومث ف. كورينطى اللغوى المعجمى ومترجم المعلقات إلى الإسبانية ، فترجم «عودة الروح» ، أعقبته ترجمة بدور مارتينث مونتابث - مدير جامعة مدريد الأوتونوما الأسبق - لمسرحية «شهر زاد» ، ترجمة جيدة ، مشفوعة بدراسة ، وكل هذه الترجمات محصورة أو تكاد فى دوائر الاستشراق .

ثم جاءت ترجمة نجوى محرز لأربعة أعمال للحكيم ، هى : نهر الجنون - وبين الحرب والسلام - والشيطان فى خطر . ونحو حياة أفضل ، مشفوعة بمقدمة عن الحكيم وأدبه ، وخصائصه الفنية فى صفحات قلائل .

وقد عرضت المترجمة فى أسطر قليلة لبعض الصعوبات التى واجهتها فى الترجمة واستطاعت التغلب عليها ؛ لأنها تتعلق فحسب بالضمائر اللغوية مذكرة ومؤنثة فى مسألة «الحرب والسلام» .

وترجمة المسرحيات - وإن بدت سهلة يسيرة - حيث تقوم على الحوار ذى الجمل القصيرة غالبًا - عمل غير يسير ، لأن أسلوب الحكيم خاصة من أرقى

مانعهد فى أساليب الحوار ، يلعب ذكاؤه وبراعته اللغوية دورًا غير محدود فى المراد ، مثله مثل كبار كتاب المسرح فى اللغات الأخرى ، وهنا مكمن الصعوبة ، حيث تقوم الإيماءات والنقاط ، وعلامات الكتابة والترقيم بدور لايقل عن الكلام الملفوظ ، كما يقوم «المونولوج» أو تصوير حالة المحاور بين الأقواس بدور شديد الخطورة ، وعلى المترجم فى تلك الحالة أن يقيد هذه الخواطر لأنها لم تجئ عبثًا ، وأن يتزيا لكل حالة إيماء أو تصريحًا بالزى الملائم ، وكانت نجوى محرز - وهى مثقفة واعية - وذات قدرة بارعة فى الإسبانية والفرنسية - كفاء هذه الصعوبات ، تحركت خلالها بمهارة واقتدار فى الأغلب الأعم ، إلا فيما يعسر فيه الإلتقاء بين اللغتين العربية والإسبانية ، لكنها فى أحيان قلائل كانت تغض الطرف عن الجمل، التى تجئ بين قوسين وهى تصور حالة المحاور راضيًا أو مؤمئًا ، أو ساخطًا أو متعجبًا ، وكأنها تكتفى بما تحمل عبارته من هذه الحالات ، وقد رأينا عدم الاكتفاء بما اكتفت به ، معتقدين أن أمانة النقل تقتضى ترجمتها ، وربما زادتها حسنًا ، غير أن هذه حالات معدودة جدًا ، وثمة جمل أخرى نرى أنها اقتربت من الأصل ، واستغنت عن الظلال ، وترجمة الظلال أمر ضرورى فى الترجمة الأدبية .

المجموعة التى نقلت عنها نجوى محرز تحمل عنوان «سر المنتحرة» وهى مسرحية من أربعة فصول ، أغفلتها المترجمة ، مكتفية بالأربع المذكورة ، وكلها من فصل واحد ، ولعلها ارتأت أن تقدم مسرحية الفصل الواحد إلى القارئ الإسبانى بعد أن عرفه فى المسرحيات ذوات الفصول المتعددة أو الرواية الطويلة ، ولعلها تعاود ترجمة «سر المنتحرة» لتكمل المجموعة ، وتكمل الطريق فى ترجمة غير الحكيم من الأدباء المصريين .

نشرت هذه الترجمة فى مصر ، ولقارئ اللغة الإسبانية ، فلعل دار النشر تقدم هذه الترجمة مشكورة إلى الدور الإسبانية فى إسبانيا وأمريكا اللاتينية لئلا ندور مع الإسبان فى حلقات الاستشراق . . وهى حلقات محدودة هنا أو هناك .

الدراسات الأندلسية فى مصر

الدراسات الأندلسية الآن فى مصر مظلومة ، وأصحابها يحفرون فى الصخر بأظافرهم ، لعدم اكتمال أدوات البحث والنظر لدى أغلبهم الآن ؛ لأن الحقل لايزال بكرا ، وطارقوه المؤهلون له محدودون ، مع اشتداد أهميته فى تلك الظروف المتعاقبة التى نعيشها حاضرًا .

أولى أدوات البحث الأندلسى أدبًا وفكرًا ، وتاريخًا ، وحضارةً أن تعرف تاريخ هذا البلد معرفة وثيقة ، وأن نفطن إلى أسرار لغتنا ، وبها كتب تراث أندلسى هائل ، وهذه المعرفة وتلك الفطنة يمكن أن تخرج باحثًا أندلسيًا تقليديًا ، يتحرك فى مجال التراث العربى ، دون أن يطمح ببصره إلى مايكتبه الإسبان عن الأندلس منصفين وغير منصفين ، فنحن فى حاجة إليه ، ولايتأتى ذلك دون معرفة اللغة الإسبانية لنطالع ثمرات قرائح مستشرقين من أمثال خوليان ربيرا ، وأنخل جونثالث بالنثيا ، وميجيل أسين بالاثيوس ، وغرثيه غومث ، وجرانخا ، وبدور مارتينث ، وكورينطى وإخوان هذا الطراز ، ولكل واحد منهم باعه فى الأندلسيات فكرًا وتاريخًا وحضارة ، قد فطن جيل سابق لقيمة الدراسات الأندلسية فاهتموا بها ، واحتشدوا بأدوات النظر لمعرفتهم بلغات أخرى ، من أمثال الدكاترة أحمد ضيف وحسين مؤنس ومحمد عبدالله عنان وغيرهم ، ثم كانت مبادرة طه حسين بإنشاء المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، وهو وزير آنذاك ، وكان يدرك أن مشروع الدرس الأندلسى لن يتم على الوجه الذى يراه إلا بتكوين جيل ، يقف على تراثه العربى الأصيل ، ويقف على اللغة الإسبانية مبعوثًا إلى بلادها ، وكان لنا جيل من الرواد الأندلسيين فى مصر أمثال الدكاترة : عبدالعزيز الأهوانى، وأحمد هيكل ، ومحمود مكى ، والطاهر مكى ، وأحمد مختار العبادى وآخرين حملوا عبء الدراسة الأندلسية فكرًا وتاريخًا وحضارةً ، وتكاد تكون إسهاماتهم على تفاوت - هى أفضل الإسهامات التى قدمت حتى الآن ،

وجاء جيل آخر لايزال يحمل العبء من أمثال الدكاترة : صلاح فضل ، وعبدالله جمال الدين ، ومحمد عيسى ، وأحمد عبدالعزيز ، ويحاول أن يقدم جهودهم تأليفًا وترجمة .

إن دراسات المستشرقين الإسبان عن الأندلس منطقة محظورة ومخيفة ، إلا لمن يقترب منها بلغتها ، أو على الأقل بلغة أخرى كالفرنسية مثلاً ، ولاتكاد تسد مسد الإسبانية ؛ فنظرية عروض الموشحات والأزجال والخرجات الرومانثية ومصادر التاريخ الموريسكى لن يقف عليه إلا من تمكن من الإسبانية ، مع احترامنا للدارسين المصريين وغيرهم ممن تخصصوا فى الأندلسيات ، ولم تتح لهم فرصة معرفة الإسبانية ، فهؤلاء يعملون بجهد لم تذلل له كل العقبات ، وبعضهم معذور حين يخلط مثلاً بين الموريسكى وبين المسلم عمومًا ، أو بين من ينتسب إلى مدينة المرية ، أو ينتسب إلى المرينيين ، ومن لايدرك الخرجات العجمية التى تختم بها الموشحات ، ومن يمزج بين الرومانثى والرومانسى . كان ثمة توازن فى المبعوثين إلى إسبانيا ، يمزج بين دارسى تاريخ الأندلس ، والأدب الأندلسى ، والأدب المقارن ، والفن الأندلسى ، واللغة الإسبانية، لكن كفة الأندلسيات مالت مؤخرًا لحساب دراسات مهمة . . لكنها يمكن أن تتم أفضل فى بلدان أخرى كالطب وله ثلاث بعثات الآن ، والزراعة ولها أربع ، والهندسة ولها ثلاث ، والفنون ولها خمس ، واللغة الإسبانية ولها ثمان ، أما الأدب الأندلسى فاقتصر على بعثة واحدة .

إن الدراسات الأخرى سوى الإسبانية يمكن أن تتجه إلى بلدان أخرى لو شاءت، لكن كيف ندرس الأندلسيات فى غير الأندلس ، صحيح أن عندنا فى الجامعات المصرية أساتذة كبارًا لكن المسألة لاتقتصر على الأستاذ فقط . بل إن معرفة اللغة الإسبانية ضرورية جدًا ، ومعايشة أحداث التاريخ الأندلسى بشرًا ، ووجوهًا ، وحضارةَ ، ومدنًا مطلوبة كذلك ، وهذا مايفيده المبعوثون : السلوك والمعرفة ، ولايمكن ترقيع البعثات بما يتم من بعث بعض الطلاب تسعة أشهر لجمع المادة ، أو أى مسمى آخر فهو نوع من العبث غير المفيد ، إذا كان ذلك ضروريًا فلا تقل المدة عن حولين كاملين لمن أراد أن يحصل شيئًا من المعرفة باللغة وأهلها .

هل تفطن وزارة المعارف ، أقصد وزارة التربية والتعليم ، إلى وظيفة البعثات إلى الأندلس ، وإلى وظيفة المعهد المصرى التى أدركها طه حسين منذ مايناهز نصف القرن، فلا يجهل دارس الأندلسيات تاريخها وفكرها وحضارتها وآدبها مايكتبه إخواننا الإسبان عن أندلسهم ، ولهم منه نصيب كنصيبنا ، ولهم نظرات لم نقف عليها بعد ، سواء اتفقنا معها أم اختلفنا .

بقية المتقدمين من شيوخ الدراسات الأندلسية فى مصر والعالم العربى ومن ذؤابة الرعيل الأول ، الذى فقه تراثه العربى ، ووقف على كتابات المستشرقين الإسبان وغيرهم بلغة غير العربية ، وتَلْمَذَ لشيوخ الاستشراق المحترمين فى إسبانيا، وعرف الحضارة الأندلسية لغة وتاريخًا وبشرًا ، واحتفظ بقوامه الخاص غير ذائب فيما عرف وهو كثير .

وكان على هذا الرعيل أن يؤلف وأن يترجم وأن يحقق ، وكان د. الطاهر مكى - ولايزال - فى طليعة هذا الرعيل ، فقد حقق بعض التراث الأندلسى ، تحقيق العالم الثبت ، وألف أندلسياته فى الشعر والنقد والتاريخ والحضارة والأدب المقارن وترجم عن الإسبانية روائع ماكتبه أثبات المستشرقين والمبدعين الإسبان وعن الفرنسية أيضًا .

والجميع بين هذه الحقول جمع عسير ، بيد أنه يسير على رجل خدم الثقافة فخدمته ، ولم تقف جهوده لدى الأندلسيات بل ولج عوالم أخرى فى النقد والأدب القديم ومصادر هذا الأدب والشعر المعاصر والقصة القصيرة ، وهو بهذه الصفة من أغرز أبناء جيله نتاجًا وكأين من أصحاب نتاج غزير خير منهم المقلون. . لكن د. الطاهر مكى جمع بين الغزارة والإتقان .

وهو صاحب أسلوب متفرد ، يجمع بين الجزالة والبساطة وله تعابير يكاد ينفرد بها ولعلها أثارة من اللغة الإسبانية ؛ فتقديم الحال على جملته من خصائص هذا الأسلوب وتسعده قدرة فذة على نخل الكلام ، فتطفر كلماته بين السطور رشيقة متوثبة حتى وهو يترجم . . وإذا استطاع الكاتب هذه الصياغة فى الترجمة ، فاستطاعته فى التأليف أوضح.

وكتاب الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية لمؤلفه الألمانى فون شاك نموذج جيد لوفاء الترجمة بالأمانة والدقة وحسن البيان ، وترجمه الأستاذ مكى عن الإسبانية، وقد نقله إليها خوان باليرا وهو من ذوى الأساليب والبيان فى لغته ، وترجم قصيدة أبى البقاء الرندى فى رثاء الأندلس شعرًا إسبانيًا رائعًا ، وارتبطت القصيدة

الأندلسية من يومها بقصيدة ذائعة لخورخي مانريكي في رثاء أبيه ، وتستحق القصيدتان دراسة مقارنة مستوعبة،قدم شاك كتابه بتمهيد عن الشعر الجاهلي في خطوط عامة ، اعتمد عليها - فيما نرى - طائفة من المستشرقين الإسبان ، بعضهم يذكرها وبعضهم يلتزم الصمت ، وقد غدت دراسته هذه من «كلاسيكيات» الحديث عن الشعر الجاهلي .

ويرى المترجم أن شاك أبدع فيها لأن الجاهلية الألمانية قريب من قريب من الجاهلية العربية ، كما أن الفصول المتابعة عن الثقافة الأندلسية والأغراض الشعرية - غزلاً وحماسة وخمريات ووصفًا ومديحًا وهجاءً ورثاءً - أصبحت من مراجع الدرس الأندلسي ، وهي دراسات متقدمة زمنًا ؛ إذ إن المؤلف توفي سنة ١٨٩٤ لكنه أقام زمنًا في الأندلس دارسًا ومتأملاً ، ولعل كلمته الذائعة تفسر هذا الاهتمام والتعاطف مع تلك الحضارة الآفلة : «من لم يقض أبدا أصيل يوم ربيعي في جنة العريف لايحق له أن يقول إنه رأى الكون في عظمته كاملة» .

بهذه الروح «الإنسانية» تحدث شاك عن الأندلس شعرًا وحضارةً وفنًا ؛ لأن الجزء الثالث من هذا الكتاب عن الفن العربي في إسبانيا وصقلية،قد ترجمه الدكتور مكي قبل أعوام خلت .

وهذا الكتاب محظوظ والدرس الأندلسي محظوظ كذلك ، حين أتيح لهذا الأدب والفن رجل في قامة شاك وهو شاعر في لغته وقرب الشعر الأندلسي إلى الذوق الألماني وتصرف أحيانًا تصرفًا يسيرًا ليكون أمينًا أكثر مع الشعر ، راكنًا إلى مقولته المشهورة : إن الخيانة في الترجمة تكون أحيانًا من الحرص الشديد على الأمانة ، وحين أتيح أيضًا لهذا الكتاب أن يترجمه الكاتب الروائي والسياسي والدبلوماسي خوان باليرا (ت ١٩٠٥) ، وحين قيض له أن يكون واسع التأثير في مدرسة الإستشراق الإسباني ، وفي النهاية حين يترجمه إلى العربية ناقد كبير مثل د. مكي ، فيبدع في الترجمة شأنه في ذلك شأن ترجماته الأخرى أمانة متحرجة وبلاغة عربية ، تشرق في ثوبها العربي إشراقها في ثوبها الإسباني ، وكم لذَّ لي أن أتابع الترجمة على الأصل ، وأتلبث متسائلاً : كيف تكون ترجمة هذه الفقرة، فإذا بي أجد قرة عين في الأمانة وجمال العبارة ولاغرابة ؛ فالمترجم شديد المراس، هائل التمكن من اللغتين .

الأدب الأندلسى من منظور إسبانى

الباحث العربى فى الأدب الأندلسى مستطيع بغيره ، إذا لم يطلع على ثمرات القرائح الإسبانية ، التى تتناول هذا الأدب فكرًا ولغة وتاريخًا وحضارة والمدرسة التقليدية التى تؤرخ للأدب العربى حسبها شذرات مما كتبه المؤرخون العرب القدامى عن الأندلس ؛ ولذلك تجئ دراستهم «ممتعة» بإحدى عينيها على حسب التعبير القديم للدلالة على «العوراء» .

وربما تسد الترجمات من الإسبانية بعض هذا الخلل لدى هذا الفريق من الباحثين . . لكن «الترجمان خوان» على مايقول المثل الإيطالى إلا إذا كان هذا الترجمان فى قامة أستاذ مشهود له بالأمانة ، والقدرة على حملها ، وفى ذرعه الإبانة بلغة عربية ، لاتحس فيها عرج الترجمان التى ابتلينا بها فى هذا الزمان ولايترجم لك مذيلاً ترجمته «بتصرف» كما يصنع خفاف المترجمين ، الذين ينقلون مايعرفون ويتركون مالايدرونه - وهو عسير - بتصرفهم .

والأستاذ الدكتور الطاهر أحمد مكى ذو قامة باذخة فى الترجمة ، وحسبه أن يتصدى لتلك القمم الباذخة فى الفكر الأندلسى من المستشرقين وغيرهم ، وهم رجال فى قامة «خوليان ريبيرا» و «أورتيجا إى جازيت» و «غرسيه غومث» و«أسين بلاسيوس» و «سوليدال أو خيبرت» و «رامون مينتدث بيدال» وهم خلاصة الفكر الأندلسى تأريخًا وفكرًا ولغة وحضارة وفلسفة ، ودراساتهم هى «كلاسيكيات» الدراسات الإسبانية عن الأندلس ، ولانعنى بهذا الوصف أنها قد تجاوزها الزمن ، بل نعنى بها أصول البحث عن الأندلس فى رجال ثقاة ، يحدوهم الإنصاف فى أغلب كتابتهم ، يكتبونها فى حدود ماتسمح به الكنيسة وإن كانوا يتحايلون أحيانًا فيخرجون عن أسرها . . لكن بقدر ، ولسنا مطالبيهم بوجهة نظر عربية خالصة ترضى غرورنا ، وتدغدغ مشاعرنا بل حسبنا النصفة التى رائدها أن هذا التاريخ الأندلسى هو جزء مضئ فى تاريخهم ، وإن كان أهله يتحدثون العربية ويدينون

بالإسلام ، وحسبك أن بعضهم جعل ابن حزم إسبانيّا خالصًا ، ولم يكن مثل هذا البحث مسموحًا به إلا بعد زوال غاشية التعصب .

وهذا الكتاب الذى ترجمه الدكتور مكى بمثل هذه الروعة من البيان العالى ، إنما هو فى مجمله بحوث عميقة فى مجال الأدب المقارن نظريًا وتطبيقيًا ومحاولة جادة وحيدة لمعرفة الوسائط ، وهو أغنية لهذه الثقافة العربية الأندلسية التى تجاوزت الحدود اللغوية لتؤثر تأثيرًا هائلاً فى الفكر الأوروبى فلسفيًا وصوفيًا ولغة وعرضًا كافيًا لبيان هذا الأثر العظيم ، وهى : الأصول العربية لفلسفة رايموندو لوليو ، وإسبانيا تنقل العلم العربى إلى الغرب ، وابن حزم قمة إسبانية ، والشعر الأندلسى وتأثيره فى الشعر الأوروبى . . إلخ .

لذا كنت أود أن يكون عنوان الكتاب «الفكر الأندلسى من منظور إسبانى دراسة فى المصادر والتأثيرات» . . لكن العنوان جاء متواضعًا عن المحتوى إلا إذا كان الأدب هو الأخذ من كل شئ بطرف . . وحسبنا هذه السطور التى تأخذ بطرف واحد من هذا الكتاب القيم تأليفًا وترجمة وتعليقًا ، وأن تكون تحية عرفان لرجل زاهد ، عاكف على العلم ، وهو من قمم المدرسة الأندلسية Gran Espanista فى العالم العربى على الإطلاق .